عليه الآن تحقق انها تطورت باطوار شتى في اوقات متلاحمة حتى وصلت درجة تحتاج للتأريخ والتدوين فقد تغيرت هيأتها المدنية وانتقل اهلها الى ما دعا اليه التشبُّه والمجاراة من انواع المحسنات العمرانية والمقتنيات البيتية · وهذا مقام يقضي على القلم بتفصيل المطالب وتمييز المواضيع فلذا نرتب هذا الباب مطالب تعرف بعناوينها كما ترى

﴿ مطلب الطعام ﴾

كان المصريون قبل العشرين سنة الاخيرة منقسمين ثلاثة اقسام فقراء واغنياء وامراء · فطعام الفقراء قليل الانواع والآنية ولا يخرج في الريف والمدن عن صنف واحد يطبخ كل ليلة من عدس او كشك او بيسارة او فول او دشيشة او شعرية او محمصة او كسكسو او نوعٍ من الخُضر وإدام النهار مِشّ او جبن او كراث او فجل او مخلل والريفي ينتظر وقوع بهيمة فيأكل من لحمها ولا يصنع الا مسلوقاً (صليقة) او محمراً او مدقوقاً مع ذرة ليصنع كباباً او كفتة ولا يأكل اللحم الطيب المسمى عنده (بالغصيب) الا في الاعياد والمواسم · والمدني ان اراد اكل اللحم اشترى كرشة الحيوان او ارجله او اخذ رطلاً او رطلين من لحم الجاموس الرخيص السعر ولا يعرف من المطاهي الا جعله مسلوقاً او محمراً او مقطعاً في ماء وسمن يسمى دمعة او مطبوخاً ببصل يسمى عنده قاورمة وعند الريفي يخني وبعض البلاد لا يأكل الا الارز والبعض جُل طعامه التمر · والغني الريفي كان يساوي الفقير في طعامه ويزيد عنه ذبح فرخة

او حمامة او ارنب اذا جاءهُ ضيف كما يزيد طاجن ارز خالياً او مدفوناً فيه فرخة او حمامة او لحم وارزًا بلبن مفردًا او محلًّى بعسل اسود من عسل القصب او لحمة ببصل كثير يسمونه قلاية · وآنيته كآنية الفقير طواجن وصحاف تصنعها النساء من مدقوق الطوب الاحمر (الآجر) وشوال للبن (جمع شالية مقلوب شائلة) كما يساويه في أكل اللبن المخيض وتقديمه للضيفان في الصباح والظهيرة · والغني المدني كان يأكل اللحم والخضر مقتصرًا على الصليقة والمحمر والكباب والكفتة والدمعة وانواع الخُضر وكان يطبخ الصنفين او الثلاثة لا يزيد على ذلك واوانيه الزبادي الخضر والصحف البرامية المدهونة وعظيم الثروة يتخذ بعض آنية من الصيني يحفظها في الصناديق ولا يخرجها الا في الولائم والافراح فان اراد عمل حلواء صنع الارز باللبن مع السكر او صنع المهلبية او الفطير او البسيسة ولا يصنع الحلواء الا في ليالي الضيفان والولائم الكبيرة · والامراء كان خوانهم يشتمل على خمسة اصناف او ستة في الاكثر مركبة من شوربة وصحن لحم وصحنين من الخضر او صحن حلو وصحن ارز واغلبهم يقتصر على الشوربة واللحم وصحن الخضر والارز يتداولون في هذه الصحون المحمر والكباب والكفتة وكباب الفرن والقاورمة والقبه مه وانواع الخُضر والصوبريك والرواني والمهلابية والحريرة والفطير والسنبوسك والالماسية وبعض الفواكه وآنيتهم الصيني ولا يزيد الطقم عن اثنى عشر صحنًا واغلبهم كان يستعمل آنية النحاس الصفر او الاحمر المبيض المصنوع في توقات او الاستانة او مصر · وملاعق الفقراء والاغنياء

الخشب غير ان ملاعق الاغنياء من خشب البقس وملاعق الامراء من خشب الابنوس ويندر عمل الملاعق الفضية عند كبار الامراء وبهذا الاقتصاد العظيم كانت الثروة عظيمة كلٌّ بحسب حاله مع قلة النقود اذ ذاك وعدم اتساع التجارة والزراعة فان آنية الفلاح اذا كسرت صنعت المرأة غيرها في الحال وآنية الغني يشتريها بالنص والميدي لا بالفرنك والريال والجنيه وآنية الامير يشتريها بالقروش ولكن لقلتها لا تكلفه فوق طاقته · وعدم التوسع في المطاهي كان حجاباً عظيماً بين الذهب والذهاب والفضة والانفضاض · حتى ان القدماء لما لم يجدوا باباً ينفقون فيه ذهبهم التزموا دفنه في الارض ليكون سدادا من عِوَز اذا دعت اليه الضرورات وهو الذي نسميه الآن خبيئة وكنزًا وما هو الا فضل الاقتصاد وما زاد عن ضروريات المعيشة · فلما حصل الاختلاط وامتدت التجارة واتسع نطاق الزراعة وساكن الاجنبي الوطني وتبادل الفريقان الزيارة قبح الغربي اقتصاد الشرقي وعده بقاء على الهمجية والتوحش وحسّن له التوسع في المآكل والمشارب وآنيتها ليماثل الامم المتمدنة في العالم وما قصد بذلك الا تحويل ما بيده من النقود الى بلاده واتخاذه اجيراً يشتغل ويكد الليل والنهار حتى اذا طاب زرعه وامتلأت يده بالنقود جاءه الاجنبي بمحسناته فاخذ ما بيده وتركه في اسواء مما كان فيه · فهجم الوطني الفقير والغني والامير على المحسنات الغربية يشتريها بنفيس الذهب وتعلم التفنن في المطاعم والمشارب حتى صارت آنيته مركبة من مئات من الصحون المختلفة الاشكال والكاسات المتنوعة اذ صُنع له اواني للشوربة واواني للحم

واواني للسمك واواني للخضر واواني للسلطـة واواني للسردين واواني للبيض واواني للمخلل (التورشي) واواني للحلواء واواني للفاكهة واواني للفاكهة اليابسة (اليميش) واواني للجبن وكاسات للماء القراح (وقليل شاربه على الطعام) وكاسات للنبيذ وكاسات للكنياك وكاسات للبيرة وكاسات للابسنت وكاسات للشامبانيا وكاسات للنساء غير كاسات الرجال يتبع ذلك ملاعق الارز وملاعق الحلواء وملاعق القهوة وملاعق السلطة وملاعق الدولدرمه وملاعق الشوربه وسكاكين كل صنف وشوكه وآلات كسر الفاكهة وعصر الليمون يستخدمون ذلك في طعام الكتليتة والبوفتيك والروسبيف والدندي والكباب والمحمر والكلاوي والمخ ولحم الصلصه ولحم البطاطس ولحم البسلة ولحم الخل ولحم الحمص ولحم التومية والقاورمـه والشاورمه والقبه مه ولحم الفرن والباصطرمه والسجق والكل باستي والضلع والمحشي والشركسيه والتورلي والمسقعه والصلايق والفطير وانواع الحلواء الشهيره (بالطاتلي) وانواع الخُضَر وما يتبع ذلك من السلطات والمخللات والمربيات والفواكه والمواضم المصنوعة . وهذه الاواني تصنع قابلة للكسر بادنى سبب وهذه المطاهي تستدعي طاهياً ماهرًا وخدما يقومون بهذه الاعمال وتستدعي الفوَط والترابيزات والكراسي والدواليب وغيرها ممـا يلزم للسفرة وتستدعي كثيرًا من الحلل (القدور) اللازمة للمطاهي العديدة فاذا كان عنده وليمة استدعت مئات من الاواني اذ كل فرد ياكل وحده على القاعدة الافرنجية ولزمه تكثير اللحوم والخُضَر وبقية الاصناف لان كل انسان ياكل في اناء مخصوص فيلزمه ان يأخذ ما يكفيه . هذا

بالنسبة الى الامراء والاغنياء اما الفقراء فقد تركوا الطاجن والصحفة واستعملوا الاطباق الصينية والاواني الرقيقة التي لا يمكنهم التحفظ عليها لعدم معرفتهم بترتيب البيوت فيلقون الاواني في وسط البيت وفي جانب الحائط فتدوسها البهائم وتكسرها فيشترون غيرها وقد توسعوا في المآكل الى حد لا يطيقون البقاء عليه لعدم كفاية الواردات المالية لهذا الاسراف العظيم

وقد اماتوا بهذا الاسراف الاقتصاد الشرقي فمانت معه ثروة الفوطية والفاخورية وتجار البرام والزبادي والخراطون وصناع الملاعق والمغارف وتجار النحاس وحيي مقابلهم في الغرب . ولما لم تكفهم وارداتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة اقترضوا ورهنوا الاملاك والاطيان وكانت الغاية سكنى الغريب فيما بنوه وانتفاعه بما ملكوه ولو رايت اسرافهم في الفرش والملابس لرايت العجب فانتظر الاسبوع القادم تنظر عجائب الزمان وتميز بين الاقتصاد الشرقي والاسراف الغربي . نعم ان المحسنات المعاشية تالفها النفوس ولكن الاسراف فيها والتهالك عليها غير محمود الا ترى ان الرجل كان يزرع العشرة فدادين او الخمسة عشر فيعيش بمحصولها طول السنة مع اكرامه الضيفان كل ليلة ويدخر كثيرًا من النقود ويزيد فدادينه بمشترى غيرها والان يزرع المائة فدان ولا تراه الا مقترضاً لا يجد من القوت الا الضروري وما ذاك الا بتركه الاقتصاد الشرقي . وترى المستخدم الاول كان ياخذ الالف قرش كل شهر وتجد عنده اغا للحريم وخدماً وحشما ويشتري املاكاً والآن ياخذ الحاضر الاربعين والخمسين جنيهاً ولا ترى في صندوقه شيئاً ولا يجدد عقارًا ينفعه

وربما وجدته مديناً وقد لا تكون لهُ عائلة اكثر من زوجة وخادمة وخادم وما جره للحرمانَ من كسبه الا السرف الغربي فلو اخذنا من محسنات الغرب ما لا بد منهُ واقتصرنا على ما يوافق اخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لانفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقي ولكن طرنا حوْل الاهواء وجرينا خلف المرئيات المزخرفة الظاهر وتتبعنا سير الغربي فجاريناهُ حتى سبقناهُ واصبحنا نعض الانامل من الغيظ ونضرب الكف بالكف اسفاً وندماً وهيهات هيهات ان نفع الندم مع التمادي على هذا التهالك في السرف اللهم الا ان تداركنا بقية صارت على شفى جرف الضياع وما ذلك على الله بعزيز

باب التهذيب

يعلم الناس ان النفوس تشتاق للامر الواقع اكثر من اشتياقها الى المتخيل وقد كنت اتناظر في اختفائي مع صديق غربي فان غاب عني يوماً اخذت اتكلم مع خادمي وكان غلاماً امياً فارغاً من الآداب لا يعرف الا ما اخذه عن والدته وما تلقاه عن امثاله فعلمته الكتابة وهذبته ولقنته ما يلزم لمثله وقبل وصوله لهذه الدرجة جرت بيني وبينه محاورات في مواد كثيرة وذلك اني كتبت كلمات من باب المثل السائر او الحِكَم واخذت اقرؤها عليه وافهمه معناها فكان يصدر منه ما يحرك الحليم للغضب واصبر رجاء وصوله الى التهذيب . وهذه الطريقة التي التزمتها في تهذيبه اسهل تناولاً من كتاب مؤلف في هذا الباب ولهذا عزمت على نشر تلك المحاورات لاشتمالها على فنون ادبية شتى في طي